الفصل الرابع

سيكولوجية المال

للمال مكانة خاصة في حياتنا النفسية، حيث يرتبط بكثير من الدوافع والميول والحاجات والاتجاهات، وإقبال المرء على تحقيق ذاته، أو البحث عن السعادة من خلاله. والخبرة النفسية التي يخلقها المال ليست خبرة سارة فقط، بل هي خبرة مملوءة أيضاً بالمعاناة من كثير من المشكلات النفسية والاجتماعية، "**إللي معاه مال بدَّر واشترى العالي واللي بلا مال كوع للضحى العالي**".

والمال عصب الحياة، "**القرش يلعب القرد**"، حيث يمكن الإنسان من أن يذلل كثيراً من العقبات التي تعترضه في الحياة. بيد أن المال لا يمكن أن يساعد الإنسان في التغلب على كل العقبات، ولكنه يقوم بدور كبير في إسعاد الإنسان وحل الكثير من مشاكله، كما أنه يعطي قيمة لكل الأشياء، بل إنه يعطي قيمة للإنسان نفسه، ويدعم علاقاته مع غيره، ويرفع صاحبه درجات في السلم الاجتماعي[1]. والمثل يقول: "**إللي معاه مال يمشي في الطريق ويمد واللي بلا مال يمشي في الطريق ويحض**"، ويقول آخر: "**إللي معاه مال ياكل لحم بالصفيحة واللي ما معاه مال يشنك على الريحة**".

وقد لوحظ وجود علاقة إيجابية بين المستوى الاقتصادي الاجتماعي والمستوى الثقافي، إلا أن الظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي مرت بها البلاد قد غيرت من هذه العلاقة، فظهرت فئات بعينها تزداد ثراء مثل التجار والحرفيين، ولم تعد المهن التي تتطلب مستوى تعليمي مرتفع هي المهن التي تدر دخلاً مرتفعًا، بل على العكس من ذلك أصبحت التي تدر دخلاً مرتفعًا لا تتطلب تعليمًا أكاديميًا. وهذا ما أشار إليه البعض من أنه إذا كانت العلاقة بين المستوى الاقتصادي الاجتماعي والمستوى الثقافي علاقة إيجابية مرتفعة في العديد من الدول المتقدمة، فإن الأمر يختلف في الدول النامية[2].

فالمال في أيدي الأغنياء وسيلة للوصول إلى العز والجاه والسيطرة، كما قد يكون وسيلة لإخضاع غيرهم من الفقراء، "**طلب الغني شقفة كسر الفقير زيره**"، لذلك نرى في بعض الأمثال الإحساس العنيف بقيمة المال حتى يقول المثل: " **الاعتبار للمال مش للرجال**"، وفي مثل آخر: "**الفلوس على كل شيء تدوس**"، "**أصلك فلوسك وجنسك ملبوسك**"، فقيمة

(1) إبراهيم شعلان، الشعب المصري في أمثاله العامية، ص325.

(2) محمد غالب (2009). المقامرة النفسية، مرجع سابق.

الإنسان بما يملكه من مال "**إللي معاه قرش يساوي قرش**"، "**إللي ما معاهش قرش ما يسواش قرش**". فهو وسيلة تذلل الصعاب، وتساعد على رفاهية الأبناء: "**معاك مال إبنك ينشال ما معكشي ابنك يمشي**"، "**بفلوسك بنت السلطان عروسك**"، "**إللي يدفع القِرش يزمَّر ابنه**".

فالمال يمنح الفرد الشعور بالحماية والقوة والأمن النفسي والسلطة والبهجة والكبرياء، وفي ذلك تقول الأمثال: "**مكسح طلع يتفسح قال بفلوسه**"، "**بفلوسه الحلوة يكلم ابوه على العلوة**"، "**الدراهم مراهم تخلي للعويل مقدار وبعد ما كان بكر سموه الحاج بكار**".

في حين أن قِلّة المال أو انعدامه قد تعني كثيراً من الجوانب المرضية المتمثلة في الخوف والضعف وعدم الاستقرار النفسي والخضوع والاستسلام والشعور بالملل والحزن وانخفاض مستوى الدافعية، فضلاً عن الشعور بالنقص والدونية "**عيبهم قلّتهم**"، ويقول آخر: "**قلتهم تحوج**"، والمراد قِلّة المال، فالشخص الغني يقول عنه المثل: "**الغني كل الناس تغني له**"، في حين يقول في الفقير: "**دلع الفقاره يجيب المرارة**"، "**الفقير ريحته وحشة**"، "**الفقير لا يتهادى ولا يدّادى ولا تقوم له في الشرع شهادة**" وفي المقارنة بين الفقير والغني يقول: "**إذا أكل الغني حيَّة قالوا من حكمته واذا أكل الفقير حية قالوا من جهالته**".

وإذا كان المال له أهمية كبيرة كما رأينا فإن الحفاظ عليه ضرورة من الضرورات، وقد كثرت الأمثال التي تحض على الاقتصاد في الإنفاق، فيقول المثل: "**من وفَّر من غداه لعشاه ما شمتت فيه عداه**"، ويقول آخر: "**الميه في البير تحب التدبير**"، "**القِرش الابيض ينفع في اليوم الاسود**"، "**دبَّر من غداك تلقى عشاك**"، "**جوع سنة تغتني العمر**". ويعتبر الادخار هو القاعدة الأساسية لتكون رأس المال، "**جوعة على جوعة خلّت للعويل راسمال**".

وتقوم سيكولوجية الادخار على أساس تأجيل الإشباع في الوقت الحاضر واستثماره في موضوعات مستقبلية. "**يا مستكتر الزمن اكتر**"، "**جبال الكحل تفنيها المراود، وكتر المال تفنيه السنين**" "وقد أثبتت الدراسات أن هناك علاقة بين سلوك الادخار وسلوك الاستدانة، فالذين يدخرون أموالهم بصورة منتظمة ودائمة عادة ما يكون مستوى الدافعية لديهم أكبر من أولئك الذين اعتادوا الاستدانة والاقتراض، كذلك فإن هناك بعض الفروق المعرفية الإدراكية بين الفريقين، إذ يعتقد المدخرون أن الديون والقروض هي نوع من أنواع الفشل

وعدم القدرة على التوافق، في حين ينظر إليها الذين اعتادوا الاستدانة على أنها وسيلة توافقية[1]".

وعن سياسة الدين يقول المثل: "**الأخذ حلو والعطا مُر**"، "**الدين سواد الخدين**"، ويقول آخر: "**الدين ينسد والعدو ينهد**"، وإذا كان ولابد من الدين فليكن للعمل حتى تستطيع أن تسدد الدين من عائده، وفي ذلك يقول المثل: "**إدَّاين وازرع ولا تداين وتبلع**"، ومع ذلك فبعض المدينين يستهينون بأموال الدائنين ويرفضون السداد، وقد عبَّر المثل عن ذلك بقوله: "**كُل دين واشرب دين وان جه صاحب الدين فخت له عين في عين**"، في حين العلاقات الإنسانية تعتمد على الأخذ والعطاء "**من خد وادى صار المال ماله**"، ولذلك يحث المثل على دفع الدين فيقول: "**إللي يدُق صدره يدفع اللي عليه**"، أي من أظهر قدرته أولى به سداد دينه أولاً، وهنا يقول الدائن: "**عند العطا أحباب وعند الطلب أعداء**"، والمثل ينصح الدائن بقوله: "**ما يموتش حق وراه مطالب**".

وسلوك الادخار والتوفير ينفع الأبناء بعد ذلك وقد بينت الأمثال ذلك بقولها: "**إللي ما يكون سعدُه من جدوده يا لطمه على خدوده**"، أي من لم تخلف له جدوده شيئًا يعيش فقيراً يلطم خديه، ومرادهم من ذك التنبيه على ترك الأموال للأبناء.

أما عندما يصل الادخار إلى حد حرمان الشخص نفسه من متع الحياة، وتجميع المال واكتنازه، والعدول عن إنفاقه في الحاضر والمستقبل، فذلك هو البُخل، وهو ضد الإنفاق والجود والكرم. والبخل يرتبط بأصحاب الأموال، فلا يُقال فلان بخيل وهو لا يملك المال! وبالتالي فهو صفة بعيدة عن الفقراء والمحتاجين؛ فالفقراء يقول عنهم المثل: "**إن عاشوا ياكلوا الدبان وان ماتوا ما يلاقوش الاكفان**"، كما أن الفقير ليس لديه ما يكنزه، "**ما عاش مالي بعد حالي**".

والبخل ممارسة لسلوك التجميع والتخزين والاكتناز بصورة مُبالغ فيها، وكأن جمع المال أصبح عِلَّة لذاته، فالبخلاء يتلذذون بتجميع الأموال، حارمين أنفسهم من مُتع الحياة، حتى أصبح المال مالكهم في الوقت الذي اعتقدوا فيه أنهم مالكوه. يقول الإمام علي –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–:

---

(1) أكرم زيدان (2008). سيكولوجية المال، ص176.

عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إياه طلب، فيعيش في الدُنيا عيش الفقراء، ويُحاسب في الآخرة حساب الأغنياء[1]. ويقول في موضع آخر: "**بَشِّرْ مَالَ البَخِيْلِ بِحَادِثٍ أَوْ وَارِثٍ**[2]" .

فهذا البخيل يأكل في منتصف الليل، فقيل له في ذلك فقال: يبرُدُ الماء، وينقمِعُ الذباب، وآمن فجأة الداخل وصرخة السائل وصياح الصبيان[3] وقد بينت الأمثال البخلاء الذين يدعون الفقر من خلال أفعالهم، فهاهو يقول: "**الطباخة الشاطرة تكفي الفرح بوزة**"، "**شربة من برة توفر الجرة**"، "**وجع البطن ولا رمي الطبيخ حامض**".

ويذكر الجاحظ في نوادره عن البخلاء قصة رجل يخاطب المال فيقول: "إن رجلاً قد بلغ في البخل غايته وصار إمامًا، وكلما صار في يده درهم خاطبه وناجاه، وكان مما يقول له: كم من أرضٍ قد قطعت، وكم من كيسٍ قد فارقت، وكم من خاملٍ رفعت، ومن رفيع قد أخملت، لك عندي ألا تعرى ولا تضحى. ثم يلقيه في كيسه ويقول له: اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذل ولا تُزعج منه[4]".

وعلى العكس من البخل تجد الكرم "**أجود من الدهب من يجود بالدهب**"، "**بيت المحسن عمار**"، "**البير الحلو دايمًا نازح**"، لأن البير العذب الماء يكثر عنده الناس لاستعمال ماءه، وهو يضرب للكريم يضر به جوده. "**الجود من الموجود**"، "**الجيدة تنجع بسيدها**"، أي الفرس الجيِّدة تنجد صاحبها في وقت الشدة، والمقصود أن الكرم ينجد صاحبه وقت العُسر، "**هين قرشك ولا تهين نفسك**"، "**الخير على قدوم الواردين**"، "**الخير يبان على الضبة**"، "إن **كلت كل واشبع وان ضربت اضرب واوجع**"، "**لجل عين تكرم ألف عين**"، "**جحر ديب يساع ميت حبيب**".

والكرم ليس إسراف، لأن الإسراف والمبالغة في الإنفاق والاستهلاك لها عواقبها الوخيمة، ومع ذلك تجد بعض الأمثال تحض على الإسراف، مثل:"**إن طاب لك عيشك كله**

---

(1) السابق، ص114.

(2) راجع: الكلمات المائة للإمام علي، تحقيق محمد غالب وأنور زناتي.

(3) محمد عبد الرحمن الربيع (1999). نوادر البخلاء: نصوص ودراسة. القاهرة: دار الشروق. ص46 .

(4) السابق، ص25

كله"، "**هين قرشك ولا تهين نفسك**"، "**الزائد اخو الناقص**"، "**كل واشرب وخلي الدنيا تخرب**"، "**إصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب**". وربما جاءت هذه الأمثال لفئة من المحرومين في مجتمع لا يتسم بالثراء بقدر معاناته من الفقر.

وقد يبدو الطابع المرضي للمال متمثلاً في "الطمع"، حيث المزيد من كسب الأموال ولو على حساب الآخرين، وتقوم سيكولوجية الطامع على أساس أن ما يملكه من مال هو دائمًا قليل، وكأن المال قد خُلق من أجلهم فقط، وقد عبَّر عن ذلك المثل القائل: "**خدوا من فقرهم وحطوا على غناكم**"، وهو يضرب للغني يستنزف ما عند الفقير ليزيد به غناه.

أو عدم التحكم في سلوك الشراء الذي يمكن تصوره ممتدًا كمتصل سلوكي من الشراء الاندفاعي الخالص في ناحية إلى الشراء القهري الخالص Compulsive Buying في ناحية أخرى، ويتأرجح بينهما سلوك مرضي أصبح يعرف في بعض أدبيات الطب النفسي وأدبيات السوق الاقتصادية بإدمان الشراء Buying Addiction، فيمكن للشخص أن يكون أقرب إلى الاندفاعية أو للقهرية في شرائه، لكن هناك قهرية واندفاعية في كل نوبة شراء مرضية، ويمكنُ تعريف إدمان الشراء بأنه الشراء المنفلت المتكرر والمُزمن والذي يُصبحُ عادةً ورَد فعل أساسي للأحداثِ و/أو المشاعرِ السلبية، ويشمل نمط إنفاق هوسي، أو لا تمكن السيطرة عليه لشراء أشياء لا يحتاجها الفرد أصلا أو لا يحتاجها حاليًا، وفي أغلب الأحيان يَخْزنها دون أنْ تُستعمل، ويشعر مدمن الشراء بنشوة غامرة أثناء عملية الشراء وأحيانًا تسبقها أو تصاحبها إثارة كبيرة، إلا أنها غالبًا ما يعقبها الندم بسبب التورط المالي الناتج عن ذلك، وكثيرون من هؤلاء يتسوقون منفردين ويضطرون لإخفاء ما يشترون عن المقربين منهم.

وعمومًا فإن الاتجاهات النفسية نحو المال كما يرى "فرويد" إما أن تكون سلبية للغاية، ومتمثلة في البخل والإمساك، وكأن قوة قهرية تحثه على عدم التفريط في أقل القليل من ماله، وإما أن تكون إيجابية جداً وتتمثل في الإنفاق الذي يصل إلى درجة مرضية في الإسراف والتبذير القهري. "**حبيب ماله، حبيب ماله، وعدو ماله، عدو ماله**".

ولنا الوسطية التي نادى بها ربنا في كتابه العزيز: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

([1]) سورة الإسراء: 29